فريقين من الجارات، تجتمع عليّ الأصوات من السطح والشارع وما بينهما من سلالم عامرة بالحركة، أو تسكن قليلا حين ينطلق من المنور صوت مباغت وغليظ لعامل من العاملين في العمارة يصرخ بالآذان. أقول: رحم الله بلالا، وأمد في عمر مؤذن جامع الرحمة، وتقاسيم صوته.

أضج بالضوضاء وأجد نفسي أستعيد هدوءا تحلت به وسط البلد أيام طفولتي وشبابي فأحذر انزلاقي إلى حنين يزيّن لي عالم الكاماريرات والسفرجية والخدم الذين يتحركون على السلالم والشوارع وداخل البيوت كأشباح لا صوت لها، هل كانوا ينتعلون أحذية مطاطية أم تدربوا على المشي بلا صوت واختزال حضورهم إلى ما يقومون به من وظائف وخدمات؟

في المساء أكتب إن جاءتني الكتابة، وإن لم تأت أجلس للقراءة أو لمشاهدة التليفزيون. محمود يزورني مساءً، أنتظر زيارته، بعد آذان العشاء، أتطلع إلى الساعة، أقول الآن يأتي محمود، ويأتي أو أنتظر، وعندما أتطلع في الساعة فأجد أنها تجاوزت الثانية عشرة أكف عن الانتظار. حين يزورني محمود نتحدث ويطول بيننا الحديث، يحتد النقاش بيننا، نختلف، أحيانا نتشاجر، ثم يمضي، يودعني بنفس العبارة حتى وإن كانت أساريره منقبضة لا تسمح له بلمحة ابتسام: يتنهد، يقول: «تصبح على خير يا رجل يا طيب!».

زارني اليوم محمود، قال:

ـ ستضرب أمريكا العراق، ما الذيْ سنفعله؟

واصل كأنه لم يطرح على السؤال:

ـ لن نفعل شيئا! يقولون سنضربكم، سنضربكم، سنضربكم، ثم يضربون، نتلقى الضربة كأننا نتفرج على فيلم، ثم ندخل لننام. قل لي ما هو توصيفك للعقل والجنون؟

ـ لا أفهم سؤالك!